
مدرسة رواق الحنبليات
قسم الدورات العامة
رواق الحنبليات
رجب
1440
شرح كتيب
الافتقار إلى اللَّه لب العبودية
للشيخ
أحمد الصويان
شرح:
سارة بنت محمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة : شرح كتيب الافتقار إلى الله لب العبودية

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،

علامات الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى:

العلامة الأولى: أن يكون الإنسان متذللًا لله عز وجل يجمع بين الذل والحب "غاية الذل مع غاية الحب لله عز وجل".

إن الإنسان بطبعه تأنف نفسه من أن يتذلل أو أن يكون مكسورًا، ولكن الذل لله عز وجل في حقيقته هو عز. بمعنى أن الإنسان المنكسر لله عز وجل، المتذلل لله عز وجل ليس إنسانًا مهانًا؛ لأن الذل لله عز وجل ليس بالذل المذموم الذي يهين صاحبه، بالعكس هذا ذلٌ صاحبه عزيزٌ. فالإنسان الذي لا ينحني إلا لله عز وجل؛ لا ينكسر حتى وإن قهره الناس وذلك لأن الذل شعور داخل الإنسان قبل كل شيء.

ولهذا فإن الإنسان العزيز بالله، المتذلل له وحده لا يشعر بالمهانة والذل مهما لقي من قهر.

وكلما كان الإنسان أشد تذللا وافتقارا وتضرعا لله سبحانه وتعالى؛ كلما كان مستغنيا عن الخلق.

وكلما كان مستحضرا لاحتياجه لله سبحانه وتعالى، ويعمل خلال الليل والنهار لوجهه الكريم، بقدر ما يمكنك الاستغناء عن الناس، وبقدر ما يقل احتياجك للناس.

وعلى قدر ما ترتقي في شعور الافتقار، وعلى قدر ما تكون ذليلًا لله عز وجل؛ على قدر ما تكون عزيزا على الخلق، غير منكسرٌ لأحد.

وهنا شيء أحب أن أنبه عليه أكثر من مرة؛ وهو اتهام الإنسان لنفسه بأنه لا يشعر بلذة الافتقار إلى الله عز وجل ولا بحب الله عند ممارسة شعائره، وهذا خطأ كبير؛ لأنك حصرت حب الله والافتقار إليه في شكل معين من اللذة. فمثال على ذلك قيامك لصلاة الفجر وأنت تشعر بتعب ولا تريد الاستيقاظ في البرد. هذا كله يعني حب الله عز وجل والتذلل والافتقار إليه. فلابد أن يكون الإنسان فطن لمشاعره ولا يضعها في إطار معين متوقعه مسبقًا، فإن لم يحدث ما توقعه؛ حكم على نفسه بعدم الشعور بلذة العمل.

ومن المقولات التي نقلها الشيخ أحمد في كتابه عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يقول:

"كلما ازداد القلب حبًا لله؛ ازداد له عبودية، وكلما ازداد له حرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله تعالى من وجهين، وجهية العبد والعلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفعلية، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه".

التعليق:

بعض الناس تتخيل أن المؤمن لا يمرض نفسيًا وهذا تصور خاطيء، فنحن بالفعل لدينا في الإسلام طرق للوقاية من الحزن والاكتئاب والوسوسة. لدينا في الإسلام وسيلة نتعامل بها مع الوسواس والخاطر الحزين، فهناك إطار في الدين يعلمنا كيف نصبر ونحتسب عند البلاء ومواجهته بطريق سليمة. ولكن المرض النفسي ليس متعلق فقط بالطريقة الصحيحة في التفكير، ولكنه متعلق أيضًا بشيء وراثي داخلنا، ولهذا فإن كل شخص يستقبل البلاء فسيولوجيا بطريقة مختلفة عن الآخر.

إذن فهو مرض متعلق بتركيبة كيمياء المخ.

ومع ذلك فإن المؤمن يختلف عن الكافر في هذه النقطة، فالمؤمن لديه أمل في الله سبحانه وتعالى وفي عوضه وإثابة الله خيرًا له، وأن هذا الحزن الشديد لي فيه ثواب وأجر، فهو في اعتقاده أنه: **"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه"** فالمؤمن طريقة تفكيرة طريقة مختلفة عن الكافر بالطبع.

على النقيض من هذا؛ لا يمكن المقارنة بين حالنا وحال صحابة رسول الله من حيث انتشار الأمراض النفسية في زماننا. فقد اختلف الآن حال بلاد المسلمين بانتشار الفقر وغيره، فأصبح انتشار الإعلانات عن السلع المستهلكة في كل بيت يزيد من متطلباتك والتي إن لم تحصل عليها؛ تشعر بالحزن، حتى أصبح الفقير نفسه يستهلك خدمات لا تتناسب بأي حال مع فقره.

انتشار وسائل التواصل الاجتماعي أيضًا جعلت حياتنا مشاعًا بيننا وكل منا يرى حال غيره ويقارن به نفسه في حين أن هذا لم يكن موجودًا من قبل، حتى أصبح لدينا دائمًا حالة من حالات التطلع للأشياء التي لم نقدر عليها. انتشار الأفلام والمسلسلات رسمت في أذهان الناس صورة للحب والمتعة غير موجودة بالحياة الواقعية، حتى تراكم بداخلنا معانٍ ومفاهيم عن شكل الحياة تجعلنا لا نستقبل ولا نتعايش مع حياتنا الاجتماعية بطريقة واقعية؛ ولهذا جاءت التربية القرآنية: **" وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ".**

هذا إلى جانب تعرضك لكم كبير من الأخبار السلبية والصراعات من خلال وسائل التواصل الاجتماعي والتي بالطبع تؤثر على الصحة النفسية لأي إنسان.

أضف إلى هذا ضغوط المجتمع وتدخلها في حياة الفرد، فعلى سبيل المثال لو أن امرأة تزوجت في عهد الصحابة ولم تستطع التعايش والتأقلم مع حياة زوجها وقررت الطلاق؛ لم تكن لتُتهم، ولا ليُنظر إليها نظرة المخطئة المذنبة. في حين أن المجتمع اليوم يتعامل مع المطلقة بصورة مختلفة ومخلة. كل تلك الأسباب

أصبحت سببًا للأمراض النفسية والتي لم تكن موجودة في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو حتى أيام أجدادنا.

وبالرغم من أن الدين يعيننا -بل ووضع لنا إطار للتعامل مع تلك الضغوط- التي قد تؤدي بطبيعة الحال للمرض النفسي؛ لا يمكن أن نقول أن المؤمن لا يُصاب بالمرض النفسي في مقابل أن الكافر يصاب بالمرض النفسي. ولم يعنِ ابن تيمية ذلك، ولكنه يعني أن تركيب الإنسان وطبيعته وفطرته تجعله في احتياج دائم لله سبحانه وتعالى وأنه لا يركن ولا يستكين إلا بعبادة لله عز وجل.

والمؤمن الذي يعبد الله سبحانه وتعالى قد يصاب بالمرض النفسي ولو على سبيل الابتلاء كما يصاب بالسرطان على سبيل الابتلاء. وهنا يجب التنبيه على أنه ربما يكون فهمنا الخاطئ أو توقعنا غير الحقيقي عن جزئية معينه في الدين هو السبب الرئيسي لإصابتنا بالمرض النفسي.

نقطة أخرى أريد أن أتوقف عندها؛ وهي الخلط بين الاعتزاز بالنفس والخوف من الشعور بالكبر والذي قد يؤدي إلى الوسواس والمرض النفسي. فمثلا قد قال سيدنا يوسف عليه السلام **" اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ "،** فقد عرف سيدنا يوسف مهاراته وأعلنها لغرض عملي دون تكبر ولا خُيلاء. قس على هذا شخص يظن أنه لو قال مثلما قال سيدنا يوسف حين يتقدم لوظيفة ما؛ يصبح متكبرًا وغير متواضع. وهذا فهم خاطئ لمعنى التواضع. وإن فعل هذا أصيب بجلد الذات بصورة كبيرة تجعله عرضة للاكتئاب والوسوسة والمرض النفسي.

وقد يصاب المؤمن بالاكتئاب لسبب آخر بعيد عن كل هذا، فمثلا هناك أدوية للبدن قد يصاحبها الشعور بالاكتئاب كعرض جانبي بسبب تغير بعض العمليات الفسيولوجية.

إذن فإن عدم فهمنا لتلك القضية قد يجعلك تصاب بالاكتئاب بالفعل؛ لأنك لم تدرك حقيقة الأمور ولم تضعها في إطارها الطبيعي.

إن الإنسان يحتاج دائمًا لإشباع شعور الاستسلام لله عز وجل والاستعانة به، والصبر على الأذى والأمل في العوض والنصر من بعد الظلم. ومعرفة مثلا أن طلب الاستعانة من الناس ليس عدم توكل على الله عز وجل ولكنه نوع من الأخذ بالأسباب. والتوكل على الله وآلية تطبيق هذا المعنى من قبل الناس درجات، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يطلبون من صاحبهم الواقف على الأرض أن يعطيهم السوط إذا وقع من أيديهم وهم فوق الدابة، وكانوا يتحملون مشقة النزول من عليها ليأخذوه بأنفسهم حتى لا يسألوا الناس طالما أنهم يستطيعون فعل هذا العمل بأنفسهم حتى ولو كان به مشقة.

إذن ففهمك لحقك وحق الناس لا يعني أنك غير متوكل على الله، فلو أن امرأة طالبت زوجها بالنفقة عليها وتدليلها -وهو حقها المؤكد-؛ لا يعتبر هذا عدم توكل. وقد تطلبه من الله أولًا وتدعو به حتى تتيسر السبل إليه ثم تطلبه من زوجها. فالمسألة متفاوتة ولا يمكن الحكم عليها بمبدأ الأبيض والأسود، فإما أن أكون متوكلًا فلا أطلب شيء حتى ولو كان حقي، وإما أن أكون غير متوكل على الله فأطالب بحقوقي! غير صحيح.

مرة ثانية؛ إذن فطبيعة الإنسان وخلقته في حاجة إلى الإيمان بالله عز وجل واستحضار معنى التوكل والافتقار إليه. وغياب ذلك الشعور يجعل الإنسان به خواء يجعله عرضة أكبر للأمراض النفسية.

المؤمن المصاب بالهم والحزن مجرد سماعه للقرآن يستكين ويشفى؛ لأنه شفاء للناس وفي نفس الوقت فإن الكافر يسمع الموسيقى ليسترخي. إذن فالكافر كالمؤمن يبحث دائمًا عن إشباع جزء العبادة والاستعانة بمعبوده؛ فالجزء الذي يشبعه المؤمن بالقرآن يشبعه الكافر بالموسيقى، والكافر يشبع جزء العبادة بعبادة الأصنام. ولكن بالرغم من كل هذا ومهما حاول إشباع نفسه بملذات كما يفعل المؤمن؛ إلا إنه بداخله خواء ودائمًا هناك شيء عنده ناقص، لذلك فإن بعض الناس يصفون الإلحاد بأنه حالة نفسية.

عودة للكتاب.

" التواضع من مقتضيات التذلل لله عز وجل".

من مقتضيات التواضع لله عز وجل أن يعرف المرء قيمة نفسه بدون إسراف، وفي نفس الوقت ألا تترك نفسك تُهان من أحد بدعوى أن الدفاع عن النفس من الكبرياء وعدم التواضع.

فمثلًا كانت إحداهن تسرد قصة فعلية لإحدى المعلمات بالمسجد والتي كانت تعاقب الأخوات المقصرات بتنظيف حمامات المسجد، وعلى الرغم من أنا جميعًا لا نمانع نهائيًا بخدمة بيت الله والاعتناء بنظافته، إلا أن هذا لابد أن يحدث طوعًا دون إدراجه تحت بند العقاب ولا المهانة. وليس من حق أحد أن يهينك بهذا الشكل تحت مسمى أن رفضك لفعل هذا نوعٌ من التكبر، فهناك فرق شاسع بين التواضع والمهانة. وهنا أرشح لمن يحب أن يستزيد في توضيح تلك الفروق قراءة "فروق ابن القيم -السؤال الواحد والعشرين- كتاب الروح". فقد كتب فيه فروقات مهمة جدا في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ مثل الفرق بين خشوع النفاق وخشوع الإيمان، الفرق بين التواضع والمهانة، وغيره.

إذن لا يوجد في ديننا هذا المعنى من الخضوع "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر"، بل إن في ديننا معنى آخر وهو أن **"وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ"**. والعفو يكون فقط لمقام القادر الذي يتنازل عن حقه طواعية ويطلب الأجر من الله.

فالمسلم عزيز، وهذا متفقٌ مع حاجات الإنسان النفسية. فالتواضع أن أعرف قدر نفسي بأنني عبد ضعيف وأنني إن لم يهدني الله عز وجل لن أصل لشيء، وألا أغتر بنفسي وأعتقد أن أمري يسير بقوتي وقدرتي وتصرفي.

فالتواضع أن تعرف قدرتك ومواطن قوتك وأن تكون على تمام العلم أن هذا كله إنما هو نعمة وفضل الله عز وجل عليك، فإن حرمك التوفيق لن تصل لشيء. فلا نكون مثل الذي قال: **" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي"**، ولكن نستشعر معنى ما قاله سيدنا يوسف **"ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ"**.

فعلى سبيل المثال لو أنك قد اجتهدت وذاكرت وأخذت بكل الأسباب للتحضير لامتحان ما ثم دخلتِ فنسيتِ كل ما قرأته، من المنقذ هنا؟ إلى من تلجئين في هذا التوقيت؟ حينها فقط تدركين حقيقتك وضعفك وحتى قدرتك ومؤهلاتك دون تفاخر أو تكبر أو استعلاء على الناس. وتعرفين أن تلك القدرات هي هبة من الله ومنحة وفضل منه عليك سبحانه وتعالى، فتدركين مؤهلاتك وقدراتك لتستغلينها وتصرفينها لنفع الناس دون تكبر أو استعلاء. فقد كان الصحابة الكرام يقولون: **"اللهم لولَا أَنتَ ما اهتدينا، ولا تَصدّقنا وَلَا صلينا فَأَنزِلِ السكينَةَ علينَا وثبت الأقدام إن لاقينا"**. نفس المعنى نتعلمه بالمقارنة بين غزوة حنين وغزوة بدر:

"وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ".

" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".

" إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ".

"بَلَىٰ ۚ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ".

فحين ظن المسلمون بأنفسهم القوة واغتروا بأنفسهم؛ جاءهم الخذلان والهزيمة تهذيبًا وتربيةً لهم ليدركوا أنهم لن ينتصروا بكثرتهم ولا بتفوقهم ولكن بتوفيق الله عز وجل وبكثرتهم بالله عز وجل.

وفي بدر كان الكفار عددهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين وانتصر المسلمون؛ لأنهم لجأوا إلى الله سبحانه وتعالى وطلبوا منه التوفيق والمدد. فقد نأخذ بالأسباب كلها ثم إن شاء الله وفقنا وإن لم يشأ لا نوفق، وقد تأخذ بالأسباب بقدر بسيط لانشغالك بأمر آخر أكثر أهمية ويبارك الله في ذلك القدر البسيط ويوفقك به. مثل بنت لم تعطِ للمذاكرة حقها؛ لأنها تعول أمها المريضة وتسهر على خدمتها.

إذن فالمسألة ليست رياضية. **إذا كان فإذًا؛** بل إنها مسألة توفيق.

فنعم قد تكون طبيبًا ممتازًا وتخطئ أثناء العملية، ونعم قد تكونين معلمة رائعة في جميع الأيام ويوم التفتيش لا تؤدين عملك كما يجب، فتجرد دائما من حولك وقوتك والتجئ لحوله وقوته سبحانه وتعالى. ولهذا عُلمنا أن نقول في الأذكار: **"يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا".** فالثقة في نفسك وفي مميزاتك لن تصل بك لشيء، ولكن عليك أن تعرفي مميزاتك التي تفضل الله عليك بها ثم تثقي في الله.

ففهمك لكل تلك الأمور بشكلها السليم المتوافق مع طبيعتك يجعلك قادرا على مواجهة العالم والتعامل مع تحدياته وابتلاءاته حتى لا تقع فريسة الأمراض النفسية والحزن والاكتئاب، وإن حدث هذا بالفعل ترفق بنفسك لأنك تعلم أن الكمال لله عز وجل، وإياك واليأس من رحمة الله عز وجل. **فقد كان ابن القيم رحمه الله يقول: "لا تقطع الاعتذار وإن طردت"،** فالزم بابه فإن فُتح للمقبولين في مواسم الخير تدخل دخول الفضوليين إن جاز التعبير. ولهذا كان السلف يقولون: **"تشبهوا وإن لم تكونوا مثلهم"**.

وهنا نختم بسؤال وهو: هل المشقة تتعارض مع اللذة؟ والإجابة: **"لا"** فقد يتلذذ الإنسان بشعوره بالمشقة في العبادة. كالأم التي تستمتع بإعداد الطعام لأبنائها وإطعامهم بالرغم من شدة تعبها. فلا تحصر اللذة في شعور معين في تخيلك بعيد كل البعد عن المشقة؛ لأن اللذة قد تأتي بالفعل مع المشقة.

****